

## البعثة البابوية الأولى (١٥٦١ - ١٥٦٣)

إن المجمع التريدينيني طَبَعَ بطابعه كنيسة القرن السادس عشر.

مُثلت الكنيسة اللاتينية الغربية فيه تمثيلاً ضخمًا، ومع ذلك لم تُمثل الكنائس الشرقية في هذا المجمع المسكوني. فقد أرسل عدة سفراء بابويون أو موقدون، في الخمسينات، لدعوة رؤساء الكنائس إلى الاشتراك فيه أو إلى انتداب ممثلين. تقتصر هنا على كنيسة مصر القبطية والحبش، فنقول إن السفير البابوي المطران أمبروسيو بودجاج الدومنيكي سبق له أن قام بزيارة في ١٥٥٤ إلى بطريرك الأقباط جبرائيل السابع (١٥٢٥ - ١٥٦٨). وكتب بعد ذلك رسالة طويلة إلى البابا بولس الرابع (١٥٥٥ - ١٥٥٩)، بتاريخ ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٥٥، أرسلها إلى رومة عن يد رجل ثقة يُدعى أبرام. وصل أبرام في نهاية حبرية بولس الرابع، في ١٥٥٧ أو ١٥٥٨. ولقد فهم - خطأ كما سيأتي ذكره - في المدينة الخالدة، أن أبرام إنما جاء إلى رومة ليقدم خضوع بطريركه. ففاضت الأوساط الكنسية فرحًا. ووقع بيوس الرابع (١٥٥٩ - ١٥٦٥)، خليفة بولس الرابع، على مرسومين لدعوة البطريرك إلى تعيين ممثلين إلى المجمع. فكان الهدف الأول من رحلة اليسوعيين إلى مصر تثبيت عودة الكنيسة القبطية إلى الاتحاد برومة وتجديد الدعوة إلى المجمع.

وفي الوقت نفسه، كان لهذه الرسالة الأولى وقع شديد في النفوس. فكانت الرهبانية اليسوعية الفتية تركز نظرها على ذلك المشروع الواسع النطاق وغير المألوف. وكانت التلميحات إلى هذه المأثرة في وثائق ذلك الزمن كثيرة، وكانت الصلوات الحارة ترافق جهود المفوضين الرسوليين، فكان الأسلم بالوصول إلى نتيجة سميعة لصالح الكنيسة كلها كبيرًا، ربما أكبر من اللازم. لذلك أحدث إنخفاق البعثة خيبة أمل مرة بقدر ما كان الأمل كبيرًا. ونجد آثار ذلك في مفردات المؤرخين القدماء.

فالكتاب جميعًا، من دون استثناء، يعبرون عن مشاعرهم تعبيرًا سليًا، فلا نجد عندهم آية عبارة تفهم أو تعاطف لصالح بطريرك الأقباط ولصالح

شعبه. فاليانان سليثة بعبارات هجداع وجبيل وواش وعجوز وجاهل واعتداد بالنفس، بغض النظر عن الأخطاء الصارخة والبدع غير المقبولة التي تسم بها، على ما يبدو، أخلاق أولئك المسيحيين. إلا أن مصدر تلك الآراء المبالغ فيها بقدر ما تنم عن تمييز مُجحف هو خيبة الأمل التي شعر بها الأب رودريكيث على أثر إخناقه المُفجع، وقلة نتيمه خاصة.

هذه الدراسة لا تأني بشيء جديد يُذكر، في ما يختص بجوهر الأمور: أي بإخفاق البعثة. لكننا نريد وضع النقاط على الحروف في شأن أسباب الإخفاق، وهي قلة المرونة عند الأب رودريكيث وجهله اللغة العربية، يضاف إليها عدم وجود قاعدة يقوم عليها النقاش. هذه العناصر هي بديهة في أيامنا، ولكنها لم توفّر في ذلك الحين.

### شخصية أبرام

إن وجود أبرام، مؤلف بطريك الأقباط جبرائيل السابع، في رومة، هو الذي كان نقطة الانطلاق للبعثة البابوية. نعرف من مراجع مختلفة أن أبرام كان رجلاً مثقفاً وشامساً يحظى بثقة بطريكه. وكانت الدوائر الكنسية الرومانية تعدّه سفيراً حقيقياً. لكن أشخاصاً آخرين، منهم الكردينال أليساندرو، وكذلك البابا بولس الرابع، لم يتشادوا لميل الإنسان عادةً إلى التفكير وفقاً لرغباته. فلقد رأوا أن الرسائل العربية التي أتت بها أبرام قام هو بترجمتها، مع يوحنا - ماري الحبشي (الذي كان قصير الباع في هذه اللغة الشرقية، وهناك عدّة شهادات تُثبت كُلياً أنه لم يكن في رومة إذ ذاك متسلحاً من هذه اللغة). ولقد لاحت تلك المقامات الدينية في كلام أبرام أموراً غير طبيعية، بما أثار الشبهات. وفي وقت لاحق، اعترف بطريك الأقباط بأن أبرام ذهب إلى إيطاليا لأمره الشخصية وبأنه حصل منه على رسائل توصية، لا بل على رسائل موقعة على يياض. أما الأب لينيز، رئيس اليسوعيين العام، فقد بدا متحفظاً، في حين أن الأب إليانو، الذي كان شاباً وسريع التصديق، أدلى برأي إيجابيّ. فباشر الكردينال تحقيقاً سرّياً وأرسل رجلاً إلى القاهرة للحصول من البطريك نفسه، بواسطة قنصل البندقية، على بعض الإيضاحات عن أبرام. لكن أبرام كان داهياً فاشتم رائحة ما يُدبر عليه وأرسل هو أيضاً شخصاً من قبله. واتفق

أن مبعوث الكردينال ومبعوث أبرام رحلا في الوقت نفسه. فأعلم مبعوث أبرام البطريك بما يجب أن يقوله للفتنصل (في الواقع، تمكن أبرام من التأثير في نفس البطريك العجوز بتلفيق رواية مشيرة للدموع، يزعم فيها أنه يعرض نفسه لخطر الاحتراق حيا، إن خُيل للرومانيين أنه خدعهم). وهكذا، أخذت رومة جوابا مؤيذا لموقف أبرام، واعتقدت بأنه جاء فعلا يقدم الخضوع. وكان خلف بيوس الرابع بولس الرابع الذي توفي في ١٥٥٩، عزم على إرسال يسوعيين ليكتشفا نية البطريك نفسه وتسلمها من يديه هذا الخضوع، ويدعواه إلى المجمع. وبما أن الأب عمانوئيل دي مونتيمائر كان مقيمًا بالقرب من مصر، أي في قبرس، فهو الذي فكروا أولاً في اختياره. ولكن، حين وصل الأب رودريكيو من إسبانيا للبحث في بعض أمور إقليمه، بدأ الرجل المرسل من السماء والشخص المناسب لتحقيق ذلك المشروع الرسولي. وكان من المفيد أن يضم إليه رجل يجنس اللغة العربية، فعينوا الأب يوحنا الممدان إلبانو، لأنه من أصل يهودي وكان قد قضى وهو شاب عدة سنين في مدينة القاهرة. كان يعرف الأماكن، وله إلمام بالعربية (من غير أن يُحسن كتابتها). لكن أصله اليهودي كان يعرضه لبعض المتاعب من قبل عائلته وأبناء دينه. وهذا ما جرى فعلاً. أما الشخص الثالث فكان الأخ الفونس برافو الإسباني، وكان له هو أيضاً بعض الإلمام بالعربية.

وفي وقت لاحق، نرى أن صحيفتي الإخضاع في البعثة، الأبوين رودريكيو وإلبانو، عدا أبرام نصاباً خبيثاً. وكانا يشعران بالمرارة، لأنه خدعهما. وسار المؤرخون القدماء في خطاهما. ولكن يبدو أن كل ذلك لا يخلو من المبالغة. فهناك، ولا شك، سوء تفاهم في أمر السفير وفي ما ينتص بالرسالة التي كان يحملها. فسواء أكان فيها تلاعب أم لا، لم تنسر تفسيراً صحيحاً، لا من حيث اللغة العربية ولا من حيث الإنشاء الكثير الحشو والخيالي من الالتزام العقائدي. وكان للنسبة أيضاً دور في هذا الأمر. فإن عدم تفهم العقليّة المصرية وطرق تعبيرها لم يساعد على تقدير الأمور حتى قدرها. إن شخصية أبرام تذكرنا بشخصين سوف يظهران على الساحة في وقت لاحق، بعيد إقامة اليسوعيين في القاهرة: الأول مراد، سفير الحبش، والآخر إبراهيم حنا، لبناني ماروني، عابر سبيل، أصبح موفد بطريك الأقباط في باريس ورومة. أفليس أن الأروبيين

حملوا هذين المبعوثين على حمل الجذ أكثر مما ينبغي؟ كانا رجلين قادتها أمورهما (التجارية والمالية والسياحية) إلى رومة أو إلى أماكن أخرى، وكُلِّفَا بمهمات يقومان بها بحسب الظروف. فالبطريك جبرائيل السابع لم يشعر قط بأن موفده المقدم قد خدعه. وسبعيته لاهوتياً في المناقشات مع اليسوعيين ومثلاً في المجمع.

## الرحلة

يوم الأربعاء في ٢ تموز (يوليو)، غادر فريق اليسوعيين الصغير رومة، ترافقه أطيب تمثيات الرهبانية اليسوعية، إذ إن تلك الرسالة التاريخية بعثت الأمل في تحقيق خير عظيم في سبيل الكنيسة. فكانت الصلوات تُرفع باستمرار في بيوت الرهبانية اليسوعية. وكانت السلطات الكنسية تشارك في تلك التطلعات الحارة.

وَصَلَ الموفدون إلى البندقية عن طريق أنكون. وهناك بدأت فترة انتظار لا نهاية لها، واضطر الأب إليانو إلى الاختباء في غرفة سطح صغيرة لئلا يبلغ خير البعثة إلى آذان اليهود، وكان الأب رودريكييز والأخ براقو يتسوقان، فيشتريان كتباً في العقيدة وفي المذاهب الشرقية، ويوصيان بتخطيط الحُلل الكنسية بقيمة ستمائة دوق، وهي هدية البابا إلى البطريك، وتُتَّان معاملات جوازات السفر، ويشتريان ما يلزمهم من الملابس (وكادت أن لا تختلف، في آخر الأمر، عن لباسهم الأوروبي). فسرعان ما عرف الأخ قزير الأب إليانو. وكانا يُحسنان إلى السفير، لأن نجاحهم كان يتوقف إلى حد ما على نيل رضاه (وكان قد أعرب عن رغبته في العودة إلى مصر، فمن الراجح أنه أخذ يشعر بالحن). وكانت رومة على علم بجميع تلك الاستعدادات، بفضل العديد من الرسائل، ولا شك أن الأب إليانو هو الذي كان يكتبها عادةً، لأن الرئيس لم يكن يُحسن الكثير من اللغات.

وبعد انتظار كاد أن يُفقد الأمل، وكان ذلك في أول تشرين الأول (أكتوبر)، أي بعد وصولهم إلى البندقية بعشرة أسابيع، رُفِعَت أشرعة المركب وهب نسيم أخذ يرفع السفينة إلى الجنوب. وكان اليسوعيون يتوقعون، في الإنشاء المفضَّح الخاص بالباروك، أن يتألوا ويذلوا أنفسهم في سبيل البعثة،

فكانوا مستعدين لاقترام جميع أنواع الخطر والعناء . ولكن خيبات الأمل المُدَّة لم تكن أقلَّ أجرًا عند الله من الصلابة المجيدة التي تقصتهم!

وفي عُرض البحر، قام الأبرار بخدمتها الرسوليَّة لدى جمهور السفينة المتعدِّد الألوان . وكانا يعيشان وكأنتها في بيت من بيوت رهبانيتنا: يقيان صلواتها اليوميَّة، ومحتفلان كلَّ يوم بـ«قداس أبيض» في حضور الملاحين والركاب . ولقد ورد، في إحدى رسائل إليانو النادرة التي كتبها في تلك الأيام، ملخَّص حيِّ لنمط حياتهم على ظهر السفينة . وكان الأب راوية ممتازًا، فإنَّ وصف أسره وغرقه مُتَمِّع جدًا . ولا شكَّ أنَّ إخوته في المعهد الروماني قد سُروا بالإصغاء، في أثناء القراءة على المائدة، إلى أخبار رحلته . فمن المؤسف أن يكون قد امتنع عن الكتابة في أثناء إقامته الثانية في مصر (١٥٨٢ - ١٥٨٥) .

وأكبَّ الأب إليانو على درس العربيَّة مدَّة رحلته البحريَّة، أي على قراءة وكتابة لغة لا يُحسِّن منها سوى الكلام . وهذا ما فعله رفيقه أيضًا .

نستيق ما سيأتي ذكره فنلاحظ أنَّ معرفة هذه اللغة كانت أوَّلِيَّة إلى حدِّ بعيد، حتَّى عند الأب إليانو، مع أنَّه عُرف بأنَّه نادرة زمانه في علم اللغات . فإنَّه كان يجهد قراءة العربيَّة وكتابتها، فوجب عليه الاعتراف بجزئه أن ينقل، من الإيطاليَّة إلى العربيَّة، قرارات المجمع النيقاوي الأربعة والعشرين . أوَّليس من البليغ أن يكتب بطريرك الأقباط إلى البابا ليعتذر عن إخفاق البعثة، أن موقفه يجهلان اللغة العربيَّة، ممَّا أدَّى إلى قلَّة تفاهم بينه وبينها . (ومراده أن في ذلك سبب الإخفاق) . رأنا حصول الأب إليانو في قبرس على شهادة من باب الاحتياط، فليس من شأنه أن يؤثِّر فينا تأثيرًا حسنًا فوق الحدِّ، علمًا بأنَّ المتدِّين كثيرًا ما يُتَّأون بتقدِّمهم الرائع!

تمَّت الرحلة من دون الكثير من المتاعب، ولكن لا من دون بعض المواقف وبعض مخاطر القراصنة الذين ألقوا الاضطراب في السفينة كلِّها .

وبعد خمسة أسابيع، وصلت السفينة، عن طريق راجوزة وألزنطة، إلى الإسكندريَّة في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٦١ . فتزل اليسوعيُّون في فندق الإفرنج، وذهبوا إلى زيارة آثار المدينة . وما إن كان الغد، حتَّى رحل الأب

إليانوا إلى القاهرة بصحبة مجموعة من الأشراف، للتخلص من الاحتكاك الخطير باليهود. فوصل إليها في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر)، في حين أن الثلاثة الآخرين، أي رودريكيز وبرافو وأبرام، لم يصلوا إليها إلا في السادس والعشرين من الشهر. واهتم الأب إليانوا، عند وصوله، بإعلام جبرائيل السابح، لكنه لم يقبل في ذلك اليوم أن يستقبله. وفي الوقت نفسه، وفق الأب إليانوا، بأقل من يوم، في تحديد مكان أخيه في الرهبانية، الأخ اليسوعي فوجانس فزير، البرتغالي الأصل، والآي من الهند، والذي أسره الأتراك في محاولة خاسرة للدخول إلى الحبش. ومن جهة أخرى، اهتدى إلى الأب إليانوا أقرباؤه اليهود، ومنهم أمه المعجوز. وأقام اليسوعيون في بيت صغير ملحق ببنصليّة البندقية، حيث قدم لهم القنصل ليونارد ايمو جميع الخدمات التي طلبوها.

#### المحادثات والمباحثات

تمت مباحثات المفوضين الرسوليّين مع البطريرك وممثليه على مرحلتين: المرحلة الأولى، ابتداءً من الزيارة في مطلع كانون الأول (ديسمبر) ١٥٦١ إلى أواخر كانون الثاني (يناير) ١٥٦٢، ملخّصة بوجه خاصّ في الرسالتين اللتين حرّرتا في ٢٥ كانون الثاني (يناير): فترة اتصالات ومفاجآت مزعجة (هليسا مستعدين للاتحاد، كما يفكرون في رومة)، وإرجاءات دائمة في اتخاذ القرارات الهامة. ولقد سبق أن تسرّبت عدّة تلميحات بليغة إلى الرسائل الأربع التي كُتبت في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٦١، وهي رسائل وُجّهت إلى أربعة أشخاص مختلفين، ولكنها متطابقة في المعنى ومتكاملة في التفاصيل. وهناك رسالة سابقة إلى الرئيس العام كُتبت في ١٤ كانون الثاني (يناير).

أما المرحلة الثانية، فإنها ابتدأت في ٢ آذار (مارس) ١٥٦٢، حين تباحث اليسوعيان مع البطريرك في دير القديس أنطونيوس، وانتهت في مطلع شهر نيسان (أبريل)، حين عاد الأبوان إلى العاصمة المصرية. ولقد وُصف جوهر هذه الفترة في رسائل ٧ نيسان (أبريل) ١٥٦٢. وفي الرسائل إلى الرئيس العام خاصةً، نكتشف خيبة الأب رودريكيز الشديدة. ففي ذلك الحين، قُضي الأمر، ولم تأتِ المحادثات التي امتدت إلى نهاية شهر تموز (يوليو)، والتي تستند

إليها رسالة ٢١ آيار (مايو) ورسالة ٩ آب (أغسطس) ١٥٦٢، بأي شيء جديد. وهذا شأن زيارة أخيرة للبطريرك أنت في آخر لحظة وقام بها الأبوان في تموز (يوليو) ١٥٦٢ في دير القديس أنطونيوس، فإنها لم تحصل على أي تعديل جوهري. وهذا يعني أن المهمة قد انتهت في الواقع.

### المرحلة الأولى: (تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٦١ - كانون الثاني (يناير) ١٥٦٢)

ما إن وصلت الشخصيتان الرسميتان، البشان أوفدتها رومة، عاصمة العالم المسيحي الغربي، حتى علم البطريرك بحضورهما الهادف إلى زيارته في منزله، في أرض مصر الخاضعة لسلطة الأتراك. لكن هذا الحدث غير المتظر لم يكن ليروق له. ولما كان يخاف من الأتراك، فقد أوعز إلى القنصل إيمو بأكثر قدر ممكن من التكم. ورفض رفضاً باتاً أن يستقبل الأب إليانو، ثم الأب رودريكيز، في حين أنه إذن في زيارة السفير أبرام. وقُضت هذه المقابلة على انفراد باتها وقت مؤاتٍ يمكنها من وضع خطة عمل.

وتم اللقاء الرسمي بين الكنيستين، كنيسة مصر وكنيسة رومة، في الأول من كانون الأول (ديسمبر) ١٥٦١. ومن الراجع أن هذا الحدث جرى في كنيسة العذراء في حارة زويل، القرية من الحي البندقي، والتي كانت منير البطريرك في تلك الأيام. وبعد ذلك اليوم بخمس وعشرين سنة، تذكر أناب إليانو ذلك الدخول السعيد، وكان شديد التأثير بتلك الذكرى الرائعة: «دخلنا الكنيسة مرتدين حلاً كنيسة على جانب من الجمال، في عزف الآلات الموسيقية والترنيم بالاناشيد الروحية». وإن صغ أن هذا الدخول تم بحب الضنوس الجارية حاليًا في الأحداث الهامة (الاحتفال بدخول العروستين أو بالمطران أو بطالب الدرجات الكهنوتية أو بالميت، إلخ)، تصور كيف أن اليسوعيين اجتازوا الباب الرئيسي، يتقدمهم الشماسة، يحمل أحدهم صليبا ويرته الآخرون، يرافقه رنين المثلاث وخشخشة العنوج. وهذا الاستقبال الشديد الحرارة أنعش «أملاً كبيراً» في قلب اليسوعيين. ولقد أبدى هم البطريرك مودة عظيمة. وفي نهاية الرتبة، تناولوا معاً طعام الغداء. تم إذا هذا التلاقي بعد

الفرق في أجواء أفضل تقاليد الضيافة المصرية. وسلم رئيس الوفد الروماني إلى البطريك مرسومًا من البابا يعبر عن عبة البابا لشخصه وللإكليرس والشعب القبطي، وعن رغبة البابا في مساعدتهم للوصول إلى الأتحاد بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية، الذي لا بد منه لتل الخلاص الأبدي. فمن الواجب أن يُستكمل العمل الذي باشره البطريك بإرساله أبرام. وهو مدعو إلى تجديد خضوعه للبابا وإلى تقديمه صراحة. والموفدان يعدان بتقديم عونها وخدماتها، حتى بتعريض حياتها للخطر. أما البطريك، فقد عبّر عن تأثره أمام ما يكته البابا من مودة وأمام ما يُظهره من عبة بإرساله الموقدين.

وكان للموقف الحار الذي وقفه جبرائيل السابع وقع مشجع في نفسي السوعين. لا شك أن المصريين يمتازون بتسهيل الاحتكاك الأول، وتُحشى أن ينخدع الغريب.

وأراد الطرفان أن يعبرا عن صداقتها بتقديم الهدايا الواحد للآخر. فقدم البطريك «بعض الهدايا»، لكن السوعين اعتذرا بلطف عن قبولها. وفي أثناء حفلة خاصة، قدم الموفدان للبطريك هدية رومة: حُللاً ثمينة تبلغ قيمتها ستمائة دوقة. لكن البطريك فضل أن يترك هذه الهدية في بيت القنصل، كما أنه أراد أن تجري الحفلة في المكان نفسه، خوفاً من الأتراك ومن بعض المسيحيين الأقباط.

#### محادثات ومباحثات ومناقشات

وفي نهاية حفلة الاستقبال. يوشر العمل على الفور، بشيء من السرعة على ما يبدو. فتكاثرت الزيارات إلى البطريرك. وبدا البطريرك نزيهاً ومستعداً لكل شيء، مع أن تكديكاً وجيبة كانت تُثار حول تصرف أبرام والأقوال التي فاه بها في رومة. وأخذ رودريك يندخل شيئاً فشيئاً في تفاصيل الهدف المنشود من زيارتها، فعرض هذا المبدأ الأساسي، وهو كيف وأن نيل الخلاص بحتم الخضوع للكنيسة الرومانية المقدسة وللحبر الروماني، بصفته نائب المسيح حقاً وخليفة القديس بطرس، هامة الرسل. ووصفته رأس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وأباً لجميع الشعوب المسيحية ومعلمها، وقاضي القضاة يحكم بيت

في جميع المسائل التي يقوم حونها شك في مجالات الإيمان والكتاب المقدس والأسرار».

ومن ذلك المبدأ خالص رودريكي، على وجه منطقي، إلى حد رئيس الكنيسة القبطية على البعث إلى البابا برسالة خضوع، يرقعها هو والإكليرس والمؤمنون، في نسختين، تُرسل الواحدة إلى رومة، وتُحفظ الأخرى في مكان عام، لتخليد الذكر، وتشرح للمؤمنين. ويمكن القيام بهذا المسمى بلا مشقة، بالتعاون مع الموفدين الرومانيين اللذين قُوضا لهذه الغاية. وبدل هذا العمل على التكملة المنطقية لرسائل الخضوع التي سبق أن أرسلت إلى رومة عن يد السفير أبرام.

وجاء جواب البطريرك على الطريقة المصرية: الموافقة والتأجيل وعدم الترع، وبكلمة واحدة، الانتصار على وعود يُرجأ إنجازها إلى وقت لاحق. لكن رودريكي لم يصبر ولم يتجنب الاستلام للغضب الذي لا خير فيه، بل أخذ يلح ويضغط ليحمل البطريرك على الالتزام. ولقد شك في وقت لاحق من أنّ البطريرك وحاشيته لم يتكلموا بطيبة خاطر، بل عن مجاملة. في الواقع، كلّ ذلك ينم عن قلة تفهّم عند الأب نفسه.

وهناك رسالة أخرى كان يجب تليفيها إلى البطريرك، وهي دعوة صريحة إلى إرسال ممثل إلى المجمع التريدينتيني. فكانت ردود فعله هي هي، أي القبول بالمبدأ والموافقة الشفوية، مع إرجاء التنفيذ إلى وقت لاحق. وكان البطريرك ينوي تعيين إسحق، مطران قبرس للأقباط. وحين جئحت سفينة الأب إليانو في هذه الجزيرة، استأنف مساعيه بنشاط لدى المطران.

وعرضت رومة أخيراً على رئيس كنيسة مصر أن يُرسل بعض الشبان إلى المدينة الخالدة ليحصلوا فيها على تربية وثقافة متينة (نجد هذه العناية بالكون في جميع الاهتمامات الرومانية، وفي وقت لاحق، عند السلطات المدنية). فكانت ردود الفعل عند البطريرك ما ألفناه: الموافقة المبدئية وتأجيل التنفيذ: «لخوفه الشديد من غير المؤمنين».

لم يكن هذا السب منفرداً، لكنّه يظهر في أغلب الأحيان، من غير أن

يتحس له الأوروبيون بقدر كافٍ. ذلك بأنَّ المسيحيين في الشرق كانوا يعيشون في نظام العثمانيين، وهو نظام لا يُعدون عليه، لأنَّ العثمانيين كانوا على جانب كبير من الاحتباه فكانوا يراقبون عن كلب كلِّ احتكاك بالغرب، بالبابوية أو بالجمهورية البندقية.

... وأراد اليسوعيان أن يسيِّلا سير المحادثات، فأقاما بالقرب من المقرِّ البطريركي، في حارة زويلا. أفي هذا الإطار اكتشف الأب إليانو قرارات مجمع نيقيا الأربعة والثمانين الشهيرة؟ تبدو صحتها في نظر الاختصاصيين قابلة للنقاش، ولكن كان لها عند الأقباط سلطة عظيمة. ورد ذكرها عرضاً للمرة الأولى في الرسالة التي كتبها الأب رودريكيوز في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٥٦٢. هذا وقد أقرَّ كاتب الرسالة بأنَّ الأب إليانو لم يتوصَّل إلى نقلها من العربية إلى الإيطالية، وهذه الملاحظة تُطلعنا على درجة تفلُّعه من العربية.

لم تطل إقامتهما في البيت الجديد، لأنَّ البطريرك عينَ ممثلين، اختارهما من بين أذكي أبناء شعبه، وهما أبرام الذي عرفناه وجيورجيوس الذي لن نعود نعرف عنه أيَّ شيء. وكان رودريكيوز يعتقد الأمل بأنَّ كلَّ شيء سير على ما يرام، لكنَّه شعر في كانون الثاني (يناير) بأنَّه لم بعد سيّد الموقف. أعدت وثائق الخضوع ولم يبق إلا أن يوقِّع البطريرك عليها، لكنَّه ما زال يؤجِّل التوقيع، لعجزه عن اتخاذ القرار. فاعتذر الممثلان وأرجأ القضية إلى أجل غير مسمى. وإلى جانب ذلك، جحد أحد الأقباط إيمانه، فعكَّر ذلك صفو البطريرك. وأخذ الأقباط الآخرون يراقبون البطريرك العجوز لثلاً تزَلَّ به القدم، فيجرَّ كنية الأقباط، على غير علم منه، إلى حضن الغرب، عدو الأتراك، ولا يأخذ بعين الاعتبار ما هناك من أسباب عقائدية. فإنَّ بعض المقرَّبين إلى البطريرك كانوا، على ما يبدو، أكثر إدراكاً ليا في هذه القضية من رهان، علماً بأنَّ ذلك الخضوع للبابا لم يكن فعل قضاء، بل فعل احترام وتواضع، يقوم به أخ صغير نحو أخيه الأكبر. فمنذ أن تمَّ التقسيم إلى بطريركيات، أصبح كلُّ بطريرك «سيّد بيته». لم يكن هذا الرفض متظُّراً، فأذهل اليسوعيين إلى حدِّ كبير، فقاما عبثاً بمحاولة لدى البطريرك نفسه لحمله على تعديل موقفه. إنَّ نقطة الانطلاق، الفائلة بأنَّ قبول رئاسة البابا يؤتني «بسهولة» إلى سائر الأمور، لم تكن صحيحة، فضلاً عن أنَّ البطريرك لم يبق مطمئنِّ النفس، في حين أنَّ اليسوعيين شعروا بالحاجة

إلى التراجع، بعد قضاء شهرين مليئين بالمجادلات العنيفة والعقيمة، حتى إن صحتهما قد ساءت. وهناك أخيراً أن أبناء دين الأب إليانو السابقين كانوا يلاحقونه بلا انقطاع في شأن دين قديم مزعوم، حتى إن الأب الرئيس اضطر إلى التفكير في تعيين رجل آخر مكانه. فتوقفت المجادلات إلى حين. وسيلتقون في هدوء برية القديس أنطونيوس.

### المرحلة الثانية (آذار (مارس) - نيسان (أبريل) ١٥٦٢).

وفي ٢ آذار (مارس)، رافق الوفدان البطريرك إلى دير القديس أنطونيوس. وكان اليسوعيان قد تمنيا حضور أبرام وجيورجيوس. والأستحال النقاش مع بعض الرهبان، لكونهم جُيلاً مشهورين، كما يقول البطريرك نفسه. ولقد تألم اليسوعيان، في أثناء تنقلاتها، أمام الدمار الديني الذي يعيش فيه مسيحيو الريف المصري. فما أكثر الأولاد الذين لم يعمدوا بالرغم من تقدمهم في السن، ومع ذلك، يبدو أن الكهنة والمطارنة أنفسهم لا يبالون بالأمر كما يجب. فكان اليسوعيان يعرضان نفسها لإحياء الدين في منطقة الصعيد، بعد إنجاز مهمتهما.

في ٧ آذار (مارس)، وصلت بهم قافلة الجمال إلى الدير. ولا نعلم هل استطاع اليسوعيان أن يزورا خزانة كتب الدير، كما طلب إليها المونسنيور فيرريلو. ففي رومة وأوروبا، كان الأدباء يعتقدون بأن في الدير «كتباً كثيرة»، فكان العلماء يرغبون في الحصول على «لائحة الكتب اللاتينية التي يقال إنها بينها». لكننا لا نجد في رسائل اليسوعيين أي تلميح إلى ذلك، لعدم وجود تلك المكتبة، على الأرجح، إلا في محيلات علماء أوروبا. واليسوعيان هما من أوائل الأوروبيين الذين زاروا هذا الدير الشهير. إنها أقاما فيه مرتين ولم يغكرا في ترك وصف له، وحتى نبذة عنه.

وفي دير القديس أنطونيوس، استؤنفت المباحثات بزخم أكبر. واجتهد رودريكي أن يتزع توقيع البطريرك على وثيقة الخضوع. وطلب أيضاً توقيعاً على ملخصات المناقشات السابقة المختصة بالأمور التي تم عليها الاتفاق، بحسب ظنه. لقد توصل رودريكي بمشقة إلى الحصول على هذه الملخصات من

أبرام وجورجيوس. لكن تبعه ضاع، فإنَّ البطريك لم يقل صراحة: لا، بل صلّم أمره إلى حكم كاهن شاب كان في دير القديس أنطونيوس.

### تدخلُ جبرائيل

كان اسم ذلك الكاهن جبرائيل، وكان، في نظر رودريكيز، رجلاً غير مثقف، لكنَّ البطريك العجوز كان يقدره إلى أبعد حدّ: ولقد رفض هذا المعاون صراحةً كلَّ اتفاق وكلَّ توقيع. لا بل ألقى المسؤولية على البطريك في حضور الموفدين. وأذعن له البطريك، فرفض التوقيع. فرأى اليسوعيان أنَّ البطريك ألقى الآن القناع عن نفسه وكشف عن خداعه المكتوم. وحاول رودريكيز أن يُنفذ البعثة في خلوة مع البطريك في عدم حضور ذلك الـ«يهودا» المسيء. لكنَّ البطريك تخوّف من تلك المحادثة فتهرّب منها مدّة طويلة. وكان الأب يريد تفسير ذلك الانقلاب الفجائي، بعد كلِّ تلك السعود. كيف يستطيع بطريك أن يتأثر إلى هذا الحدّ بشابّ يكاد أن يكون أمرداً لأنَّ جبرائيل كان أكثر ثقافة. وما هو أمر رسائل الخضوع التي أرسلت عن يد أبرام؟ لم تكن سوى رسائل احترام نحو أخ كبير، ولكنه ما زال له. ولماذا أرسل أبرام بعصّة سفير؟ كلاً! لم يكن أبرام سفيراً حقيقياً، لكنه أراد أن يرى رومة، فتحنن عليه البطريك وسلّمه رسائل إلى أخيه، مطران رومة، ضمّتها بعض التوصيات، كما جرت العادة في الشرق. وأضاف إليها بعض الأوراق الموقّعة على بياض، يجوز لأبرام أن يكتب فيها ما شاء، بحسب الظروف.

وأخيراً انتهى كلُّ شيء في المشاجرات الفوضويّة والصحيح، ذلك بأنَّ جبرائيل وسائر الرهبان شتموا موفدي رومة وجدّفوا على الكرسيّ الرسوليّ المقدّس وعلى المجمع وعلى الإيمان الصحيح، واتهموا الموفدين بالهرطقة، ولم يبق مكان للنقاش، وأكد الأقباط أنّهم سيحافظون على إيمان آبائهم بكامله، كما هو مدوّن في كتبهم، وأنّهم لن يقدموا الخضوع للبابا، مفضّلين أن تُقطع رؤوسهم على تغيير أي شيء في إيمانهم.

إنَّ رسائل الأب رودريكيز مرصّعة بمثل هذه العبارات: «ضلال هائل، وهرطقة واسعة، وعتاد كبير، وعجّز كبير، وجهل مُطبق»...

ويعد تسعة عشر يوماً، رجع الأبرام صفر الأيدي ونحبي الرجاء إلى الماصحة. أما أبرام وجيورجيوس - لم يعضر أحدهما إلى دير القديس أنطونيوس - فإن البطريك سلم إليهما رسائل، لكي تُستؤنف المناقشات في العاصمة، إن اقتضى الأمر. ولما وصل اليسوعيان إلى القاهرة، في أواخر آذار (مارس)، كان الوفاء يفتك بالناس، ويسبب موت ألفي شخص كل يوم، وكان العدد يزداد. فاحتسب الفصل والتجار في مكان معزول، كما جرت العادة في ذلك الزمان.

وفي نظر اليسوعيين، كانت كل هذه القصة مجرد مغادة. وبهذه الصورة دخلت تلك البعثة إلى التاريخ. في الواقع، كان كل شيء سوء فهم جسيماً. فحين ذهب أبرام، ومعه الرسائل، إلى عاصمة الكتلكة، لم تحظر بيال البطريك فكرة أو رغبة الاتحاد برومة، بل أظهر بالأحرى، في أثناء المحادثات مع الموقدين الرسولين، أنه لم يكن، لأول وهلة، عديم الاكترات لذلك العرض. فهل كان يشعر لهذا السبب، وهو الراهب العجوز، والقليل الثقافة، ما هنالك من فرق أساسي بين موقف الأقباط وموقف رومة؟ فمن أين ذلك الاحتجاج الذي أظهره رجاله، مع أنهم كانوا أقل جهلاً منه؟ لم يكن البطاركة يشعرون بأية حاجة إلى اتحاد عقائدي. كانوا منزهين طوال القرون في وادي النيل، فلم تحظر بيالم قط مشكلة الخضوع لبابا رومة، بل كانت الكنيسة المصرية تكفي تماماً بنفسها. وبالرغم من تلميح بعض الكتاب إلى مكاسب مادية يقال إن البطريك كان يأمل الحصول عليها من رومة عن يد أبرام، فليس في المراسلة التي وصلت إلينا ما يحملنا على التفكير في ذلك الأمر، بل يبدو لنا أن توصية لأبرام قد تكون أقرب إلى الحقيقة التاريخية. فالطبع المصري شديد الميل إلى التوصيات. والإلحاح الدائم الذي كان رودريكيز ينجأ إليه كان يضايق الأقباط وينفرهم من المفاهيم الكاثوليكية.

#### البحث في كتب الأقباط وفي مواقفهم الدينية

ومع ذلك، فإن الأب رودريكيز، في أثناء إقامته في دير القديس أنطونيوس، شق طريقاً جديدة للاستكشاف، ولم يتبه للأمر. فلقد أذن لليسوعيين، بناء على طلب منها، أن يريا الكتب اللاهوتية القبطية. فكان في

إمكانها أن يبحث في المجامع القديمة والعقائد والتقسيم إلى بطريكيّات إلخ. إعترف رودريكيز الذي علّم اللاهوت في الماضي، أنّ كلّ شيء كان مليئاً بالأخطاء والبدع.

نلاحظ، من دون أن ندخل في التفاصيل، كيف أن الأب إيلانو استغل بعد ذلك تلك المناورة الخاطئة. ففي أثناء البعثة الثانية، لم يبحث عمّا في الكتب القبطية من تناقضات، بل بحث ووجد العديد من القضايا التي كانت كاثوليكية مائة بالمائة والتي من شأنها أن تقرب وجهتي نظر الكنيستين.

فعمد أن كتب رودريكيز رسالة في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٥٦٢ (لم تمضِ ثلاثة أشهر على وصوله إلى مصر)، وضع قائمة للأخطاء العقائدية والعبادات والآراء التي تختلف عمّا عرفه في الكنيسة الرومانية أو التي تناقضه. ولقد وردت هذه القائمة المؤسفة في كتاب واسع الانتشار وضعه المؤرخ فرنسيس سكيني اليسوعي (١٥٧٠ - ١٦٢٥). هل يمكن تقدير الضرر الذي ألحقه هذا النص؟ فبعد أن دخل في كتب تدريس اللاهوت، حيث يعرض الكتاب القدماء «بدع أهل الطبيعة الواحدة»، فلا شك أنّه نقل لمدة طويلة إلى أوروبا القرن السابع عشر صورة مبتورة عن مصر ورأيها مشوّهاً في الشعب القبطي. ووجب انتظار دراسات الرخالة فانسلب (- ١٦٧٩) ولا سيما دراسات الأب غليوم دويرنات (١٦٦٧ - ١٧١١) لكي يتضح ما في القائمة من نزعة انفرادية وغير تامة وغير صحيحة. تغلغل الأب دويرنات مدّة سنين طويلة في هذا الشعب - وهذا ما لم يفعله الأب رودريكيز - وتمكّن من تصحيح الأخطاء في رسالته المؤرخة في ٢٠ تموز (يولي) ١٧١١. والتي صدرت في «المذكرات الجديدة»، المجلد الثاني، والتي أطلع عليها الأب دي صولبير (١٦٦٩ - ١٧٤٠). لقد أخذ هذا ائبلندي على نفسه أن ينتقد أخاه الإسبان (في رواية سكيني، لأنّ الأب دي صولبير كان يجهل الرسائل الأصلية)، في مقالة عن البطارقة الإسكندريتين.

وهناك بعض الأمور الأخرى، من انني عدّها الأب رودريكيز قابلة للنقاش، قد أضيفت إلى تلك القائمة المشؤومة، وكان قد دونها دسراً وخصياً على توالي المحادثات والمناقشات، وهي تشكّل مجموعة مشاكل للدرس، وأمور

مشكوك فيها يجب توضيحها، واعفاءات يجب الحصول عليها، ولا بد من عرضها جميعاً على البابا.

أما المناقشات في القاهرة مع أبرام وجيورجيوس فكانت تافهة، فطالت بعض الأسابيع وسارت بين بين حتى شهر تموز (يوليوس) من دون أية نتيجة. فكانت حواراً بين طُرُش بسبب عدم التفاهم العائد إلى الاختلاف في اللغة والعقلية والثقافة. فالأب رودريكييز، وهو الأستاذ السابق في اللاهوت، والمتمرس بـ «المناقشات العامة» وبالمنطق المدرسي، ينسب عدم نجاحه إلى إرادة الأقباط السيئة. في نظره، كان كل شيء منطقيًا، لا يُفند، بسيطًا، صافيًا، واضحًا. فإن لم يُدعن لمنطقه، ففي ذلك الدليل الواضح على سوء النية. وعلى غرار ما جرى في دير القديس أنطونيوس، فقد اغتاط الطرفان وتراشقا بالبس والشيمة. فلا فائدة في الاستمرار. ولذلك فضل اليسوعيان الذهاب إلى الإسكندرية للقيام بالخدمة الرسولية لدى الإفرنج وانتظار توجيهات رومة: إما العودة، ومن الأرجح عن طريق قبرس، وإما الذهاب إلى بعيد: إلى الهند واليابان أو الحبش، وهي بلاد يرجى منها خير أكثر من أمة الأقباط الناكرة الجميل! أكّد الأبوان أنها مستعدان لكل شيء.

ولكن، قبل العدول النهائي عن تلك الرسالة التي هي مهمة بقدر ما هي مشؤومة، أراد اليسوعيان أن يقوموا بمحاولة أخيرة. فقد دفعتهم انتفاضة يانسة إلى الرغبة في زيارة البطريرك مرة أخيرة في دير القديس أنطونيوس، للتحدث إليه بلطف وتواضع، ولتوجيه دعوة مؤثرة إليه، ولوضعه أمام مسؤولياته، عسى أن يعود أدراجه، ولتعرض قرارات نيقيًا عليه، فهي تعبر بوضوح شديد عن واجب الخضوع لبابا رومة، وللفت انتباهه إلى التناقضات البيئية التي في الكسب اللاهوتي القبطية.

ومرة أخرى، اقتحم موفدا انبايا مخاطر الطريق الطويلة عبر الصحراء في منتصف تموز (يوليوس)، وهو أحرّ شهور السنة. فنزل ردّ فعل البطريرك على الموفدين نزول الحزام البارد. فإنّ البطريرك لم يُظهر أيّ اغتباط بزيارتها الثانية. ففي أثناء خطبتهما، التي أعدها بعناية وألتياها في خلوة، قاطمهما واستنهم فجأة عن هدف زيارتهما. يبدو أنّ قد طفح الكيل. فلم يُحْفَ عنهما رئيس

الكنيسة أن الأقباط لن يتخلّوا أبداً عن أيّ شيء من إيمانهم القديم الذي أخذوه عن أجدادهم، والذي تعلّمه كتب آباؤهم. وأضاف أنه، منذ التقسيم إلى بطريركيّات، أصبح كلّ واحد سيّد بيته، ورفض رفضاً باتاً أن يُصنّف إلى ما يرغب الموفدان في التعبير عنه. ولم يتبلّ ملخّصات التناقضات. لقد انتهى كلّ شيء، فلا ولا: «وأغلق الباب تماماً». وأمّا الحُلل الكنسيّة الثمينة، تلك الهدية التي قدّمها البابا، فإنّ البطريرك طلب إليها أن يستردّها.

### أسباب الإخفاق

البعثة كُتِب لها الفشل منذ بدايتها. فالالتباس في الأصل شوّه وجهات النظر. ذلك بأنّ تصريحات أبرام فهمت فهمًا خاطئًا في رومة. ولكن، في أثناء الطريق، كان قد يمكن أن تتجه نقطة الانطلاق الخاطئة هذه نحو النهاية المنشودة.

عدّة أسباب كانت تحول دون نجاح البعثة. سبق أن ذكرنا الخوف من الأتراك. فإنّ محتليّ أرض مصر لا يستحسنون أيّ اتفاق مع أعدائهم، وإن كان هذا الاتفاق دينياً. ثمّ هناك الجهل، ذلك «الحصم الثقيل». ففي التعامل مع الجيّهال، يتعرّ إيجاد قاعدة مشتركة للمحادثات العميقة. لكنّ هذا الجهل كان يصبب الطرفين. كان الأقباط ينقصهم التكوين العقليّ والمدرسيّ، ولا شك أنّ كتبهم الطقسيّة واللاهوتيّة والأبائيّة لم تكن على مستوى المشاكل المطروحة. ومن جهة أخرى، كان الموفدان تنقصها الأدوات اللازمة لنقل أفكارها إلى الآخرين. فكانا يجهلان العربيّة، ولا يتحسّسان العقليّة القبطيّة والمصريّة.

سبق لنا أن أشرنا إلى لغة البلاد. فلا شك أنّ المناقشات كانت تجري بالعربيّة، بلغة لها عبقرية خاصة، ويمفردات تأثرت بالإسلام إلى حدّ بعيد. وأمّا المفاهيم المدرسيّة، التي صُغيت بعد قرون من المناقشات («أقوم، طبيعة، جوهر، بنوّة، الوهّة» إلخ)، وإن كان ما يعادها بوجه صحيح في العربيّة، فكانت غير معروفة. ولا شك أنّ «اللاهوتيّين» الأقباط جبرائيل وأبرام وجيلورجوس لم يدركوا منطق الأدلّة المدرسيّة التي أن بها الأب روديكيّز. كان مبتدئاً في هذه اللغة، فلم يكن عنده كتاب صرف ونحو ولا مفردات. ولا شك أنّ أبرام كان يجهل اللاتينيّة، فالترجمات الإيطاليّة التي قام بها أضلّت السلطات

الرومانية. وأما معرفة الأب إلبانو المترجم للغة العربية فكانت أولية. عند مغادرته القاهرة، كان شاباً فلم يتسن له أن يتقدم في معرفتها (ومن الراجع أن اللغة المالوفة في عائلته كانت العبرية في صيغة من صيغها). وحين كان على ظهر السفينة، انصرف إلى الدرس. ولقد قال فيه الأب رودريكيز: «كمترجم، كان موقفاً إلى حد ما». لم يستطيع أن ينقل إلى الإيطالية قرارات مجمع نيقيا، فكيف ينقل البيانات العقائدية؟ أما كونه حصل، من باب الاحتياط، على شهادة في معرفة العربية، فلا يدل على شيء. فقد سبق لنا أن قلنا إن كل مبتدئ في هذه اللغة يمكنه أن يحصل عليها. لكن البطريك كتب إلى البابا أنهم لا يفهم بعضهم بعضاً، وهذا أمر ذومغزى. وبالاختصار، يبدو غير ممكن أن يجري الطرفان مناقشات على مستوى واحد، كما لو كانا متحاورين مقبولين.

نحن إذاً أمام جهول للغة والثقافة. فهناك مواقف يبدو أنها كاذبة وخداعة، فُتِرت كآتها كاذبة وخداعة فعلاً. وأمام عدّة ردود فعل أو عبارات بدرت من أبرام، لم يكن موقف رودريكيز ما كان يُتظَر منه. وفضلاً عن ذلك، أفلم يتجاهل مهمته؟ هذا ما يجوز لنا أن نساء له. فإن لبيتز كان قد دون في توجيهاته أن على الوفد أن يزور البطريك من قِبل البابا، وأن يستكشف عن نواياه، وأن يحافظ على أطيب الاستعدادات، وأن يقدم المعلومات عن أمور الإيمان. لكن رودريكيز تصرف تصرف الفاتح، متيقناً من القيام بدور تاريخي. وهذا ما شعر به أبرام، يوم عاتب رودريكيز وقال له إنه لم يأت ليتباحث مع البطريك، بل ليزوره بالمحبة. كان رئيس الوفد يلح لينزع توقيعاً ويحصل بالقوة على الخضوع، خلافاً للنصائح الحكيمة التي زوده بها الرئيس العام: «البدء بالأمور التي توافق الطرفين... والابتعاد عن الشجار والشقاق... والسير شيئاً فشيئاً». لم يدرك رودريكيز ما كان يريد البطريك بتلك التأجيلات المغلفة بالأقوال انهيدبة. فهو يناقش ويُعيد الكرة ويتهمج ويريد أن يكون على صواب مهما كلف الأمر. فكان ينقصه بظء النيل وما في هذا البظء من فائدة، كما كان ينقصه سلامة التفكير. كانت توصيات لينز الحكيمة خالية من كل عيب: التزوّد بالحلم والصبر، وتجنب الإمساخط والمعاداة، واحترام الاختلاف في الرتب (مثلاً: أراد رودريكيز على الفور إصلاح العادات المختصة بسرّ المعمودية)، وغاشي المباحثات اللاذعة.

ولم يقدر رئيس الوفد المشاكل المختصة بالعلاقات بين الكنيستين حتى قدرها. شق طريقًا جديدة، فكان من حقه أن يرتكب بعض الأخطاء، حتى الكبيرة منها. ولقد وضّحها المتقبل شيئًا فشيئًا.

أما الأب إيلانو، فكاد رثيه اللامع أن يفتي عليه. لا نراه، ولكنه حاضر، ولا نعرف أي شيء عن اقتناعاته. من الراجح أنه تفهم الأوضاع على وجه أقرب إلى الواقع. يفضل اختباره السابقة، نضج فيه هذا الاقتناع، وهو أن التعبير الشفهي عن الإيمان لا يستوعب السرّ بكامله. فكانت هذه الفكرة شعورًا مسبقًا أثبتته المتقبل!

### الخدمات الرسولية

كان الأب لينيز قد أوصى بإلحاح في توجيهاته بالانصراف إلى الخدمات الرسولية التي تنوم بها رهبانيتنا عادة، علمًا بأن الرسالة لدى بطريرك الأقباط لها الأولوية المطلقة. وبناء على ذلك، فواء أكان في البندقيّة أم على ظهر المركب أم في الصحراء بصحبة البطريرك أم في القاهرة والإسكندرية، كان الموفدان يحاطبان جميع فئات المؤمنين ليبشروهم بكلمة الله: فكانا يشرحان لهم العقيدة المسيحية لحملهم على التقدم من سرّ الاعتراف: الذين من الطائفة اللاتينية، والإفرنج والتجار والملاحون والبحارة، ولم يهملوا اللوثريين والعميد (بالكثير من النقطه)، مع تحفظ خاصّ لليونانيين واليهود، لا لعدم تعريض الأب إيلانو لمخاطر لا فائدة منها فحسب، بل لعدم وجود أي أمل أيضًا بجني بعض الشر لدى هاتين المجموعتين، ولم يستثيا إلا الأتراك.

وفي مدينة البندقيّة الجامعة لأجناس مختلفة، مارس رودريكز خدمته الرسولية في أوقات فراغه. وعلى ظهر السفينة، كان نحو مائة وعشرة ركاب، استنادًا إلى الأرقام التي ذكرها إيلانو: سبعون يهوديًا ومنصرًا<sup>(١)</sup> وثلاثون مسيحيًا وعشرة من النبلاء. فتمّ سماع اعترافهم وتعلّموا تلاوة فرض العذراء. وأقيمت لهم «قداس بيضاء» واستمعوا إلى قراءة الكتب الروحية طوال رحلتهم التي لا

(١) المنصر هو اليهودي الذي أُجبر على اعتناق المسيحية والذي ما زال يمارس اليهودية سرًا.

نهاية لها. وأفحم اللاوثرثيون بنجاح. هذا وقد حرّم اليسوعيان اللعب بالأوراق والتجديف!

وعند وصولها إلى مصر، اهتمّ الأيوان اهتمامًا خاصًا بالعبيد، شرط ألاّ يمرضوا للخطر خدمتهما الرسولية الأساسية، لأنّ العبد، إن نجح في الهرب، يعرّض للخطر الشديد من رُئي في صحبه. سرعان ما اهتدى الأب إليانو إلى الأَخ فزير، لكنّ اليسوعيين لم يستطيعوا أن يقنوا. وفي أثناء البعثة البابوية، سيكرس الأب إليانو نفسه على وجه نظامي للاهتمام بالعبيد وفدائهم.

إنّ الإفرنج يتعاطون التجارة خاصّة، وليسوا يمارسون واجباتهم الدينية. عددهم قليل في القاهرة (لا يذكر أحد أرقامًا)، لكنهم أكثر عددًا في الإسكندرية، بسبب وجود المرفأ وتوفّر النشاط التجاري.

لم ينس الشعب القبطي، وهما يشكوان من الجهل الديني الذي لقياه، ومن التأخير في منح سرّ المعمودية ومن التقصير الكبير في الضمّ من سرّ الاعتراف. لكن قلّة معرفة اللغة العربية عند اليسوعيين كانت تحول دون انصرافها إلى خدمة رسولية مثمرة، مع أنّها كانا شديدي الرغبة فيها. وقد اقترح الأب رودريكيز، كسبًا لعطف الشعب القبطي، إنشاء مدرسة أو حتى دير صغير في الإسكندرية، عن يد الرهبانية اليسوعية أو رهبانية أخرى. واجتهد أن يردّ على بعض الاعتراضات التي قد تحول دون تحقيق هذا المشروع.

أما الجاحدون، أولئك المسيحيون الساكنين الذين، بعد استفاد جميع الوسائل، اعتنقوا دينًا آخر، فالأيوان أشارا عليهم باللجوء إلى العالم المسيحي. وكانت المناقشات مع «أهراطقة» حادة وظاهرة. ولقد مرّقت علنًا بعض الكتب الهدامة. لكن اليونانيين كانوا يقاومون كلّ محاولة للتأثير فيهم. وجرّت مناقشة مع بعض رهبان دير القديسة كاترينا، لكنّها بقيت على مستوى المجاملات ولم تأتِ بأيّ ثمر.

في الواقع، توصل الأب إليانو وحده إلى القيام ببعض الخدمات الرسولية، بفضل معرفته لبعض اللغات، في حين أنّ الأب رودريكيز منع عنها بسبب أمراضه وعاهاته. وكانت الإسكندرية مدينة غير صحيّة ومربوذة

بالتطاعون. فكان الأب رودريكز ضعيفاً بسبب تواتر الإسهال والزحار، يتألم من استمرار الحمى، حتى إن الأطباء فقدوا مرتين كل أمل بشفائه. وأحياناً ما يجد اليسوعيان نفسها عاجزين، بسبب ضعفها، عن الكتابة وحتى عن توقيع رسالة. وفي قبرس، شعر الأب إليانو بأنه لم يعد مرتبطاً برسالته لدى الأقباط، فاستغل غيابه الرسولية وانصرف إلى عدة خدمات رسولية: فأخذ يعدد ويسمع الاعترافات ويلقي الموعظ ويحتمد أن يجد بعض الشبان ليُرسلهم إلى رومة ويحث إسحق، المطران القبطي، على المشاركة في المجمع.

وأخيراً، نرى الأب إليانو، وهو اليهودي الأصل فوجد اكتمال دينه في الاهتمام إلى المسيح، يحتمد أن يُشرك أبناء دينه في النعمة التي نالها. قبل ذهابه، كانت الخدمة الرسولية لدى يهود رومة متواصلة. أما في أثناء إقامته في مصر، فلقد أوصى الرئيس العام بالكثير من الفطنة. وفي البندقية، وقبل إبحار السفينة، تدخل اليسوعيان بقوة لينعما يهودياً مهتدياً إلى المسيحية من الذهاب ومن فقدان الإيمان في الخارج، وقد منعنا كذلك خادمة مسيحية في عائلة يهودية من الذهاب ومن فقدان الإيمان أو من الاضطرار إلى اتباع غلط حياة فاسد. وعلى خلاف ذلك، فإن بعض اليهود يتدون اهتداءً ثابتاً، منهم رجل يسمى مالين، شخصية بارزة في جمارك الإسكندرية. فلقد أقام في البندقية حيث سار سيرة هادئة وكان قدوة سالحة. إن الله قادر على «أن يخرج من الحجارة أبناء إبراهيم» (متى ٩/٣)، هي الفكرة التي كثيراً ما دونها قلم اليسوعيين، وقد أنهكتها قساوة اليهود والأقباط.

### التبضع على الأب إليانو

لقد حدث أخيراً ما توقع الأب لينيز وخشي وقوعه. فإن أبناء دين الأب إليانو السابقين جعلوا عيشه لا يُطاق، فأجبروه على الذهاب وكانوا بذلك سيئاً غير مباشر لإنهاء البعثة البابوية.

ففي أرض مصر، حيث لا يخفى شيء، ما لبث الأب إليانو أن كشف أمره، بالرغم من اتخاذه جميع تدابير الحيلة. وسبق له، في البندقية، أن اضطر إلى الاختباء في غرفة صغيرة وإلى الصعود خفية إلى متن السفينة، لاجتناب

الشائعات. وفي السفينة، عرفه بعض اليهود. وفي الإسكندرية، فضل الأب إطالة المقام، لأن اليهود كانوا كُثُرًا في المرقا والجهارك. ومع كل ذلك، ففي القاهرة نفسها، كاد الأب إليانو أن يُعرف منذ وصوله إليها، ولقد سمعت أمه نفسها بحضور ابنها الذي لم تره منذ نحو عشر سنين. ولم يرد الأب إليانو أن يراها في تلك الأيام. وفي كانون الثاني (يناير) ١٥٦٢، أخذ بعض الأشخاص يطالبونه بدين قديم. وما يفسر ذلك أن الأب احتدى في تلك الأثناء إلى دين آخر، علمًا بأن الجحود كان يستحق الإعدام حرقًا بحسب شريعة الأتراك. وكان التخلص من هذا الحكم يقتضي دفع مبلغ باهظ من المال أو اعتناق دين الأتراك، وهما احتمالان مستحيلان على اليسوعي؛ وهذه الظروف شلّت حركة الأب وعُثرت تنقلاته. من الراجح أن القنصل توصل إلى لنفقة قضية الدين المزعوم. لكن الأب الرئيس رأى نفسه مُرغمًا إلى حد بعيد على تعيين خلف لرفيقه. وفي نهاية إقامتهما في أرض أفريقية، كان اليهود أنفسهم سب ابتعاد الأب إليانو. وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة، برّر هذا الابتعاد في سيرته الذاتية، ووصفه بكثير من التفاصيل، فجاءت روايته مليئة بالحياة.

ففي ذات يوم، كان الأب إليانو والأخ يرافوينظيان الذهاب على شاطئ البحر. وإذا بعصابة من اليهود والأتراك والمغاربة خرجت من المجهول وقبضت على الأب. فسيّر إلى القاضي حيث تمت مجابهة طرفين: من جهة، اليهود الذين اتهموا ابن دينهم بالدين الذي عليه أولًا، ثم بجحوده، ومن جهة أخرى، الأب رودريكيز وإلى جانبه القنصل وتجار المدينة الإفرنج. وتوصل هؤلاء إلى الحصول على إخلاء سبيل الأب بكفالة، في انتظار صدور قرار باشا القاهرة، لأن قاضي الإسكندرية رُشي ففضل عدم التورط في هذه القضية. وبين الذين كتبوا سيرة الأب إليانو من لا يتردد في اتهام أمه بإثارة تلك المسألة، اعتقادًا منهم بأن هذا الاتهام من شأنه أن يرفع قدر الأب إليانو. لكننا نلاحظ أنه لا يذكر أي شيء من ذلك في وصفه المؤثر والمتسم بالحزن والعطف البنوي لالتقائه الأول بأمه المعجوز التي بقيت يهودية (بعد انفصال دام عشر سنين واهتداء أليم إلى دين آخر)، وربما كان هذا الالتقاء التثاءه الأخير بأمه، لأنه لم يمد يذكرها بعد ذلك.

استغل الأب إليانو تلك الحرية المؤقتة وارتندى لباس تاجر حرير فنجح في

مغادرة الإسكندرية وصعد إلى متن مركب بندقيّ راس في المرفأ، يسمّى الكويرينا. وكتب نائب القنصل هذا الذهاب السريّ. وأمّا الأب رودريكيز، فقد أنفق مائة وثلاثين دينارًا، بعد أن حصل من التجار على ثلاثين منها. وكان هناك الدّين القديم المزعوم، فدفعه القنصل على الحساب، ولقد اضطرّ الرئيس بعد ذلك إلى التسوّل في المدينة ليردّ للقنصل ما أنفقه من المال. لكنّ التجار كانوا يتردّدون في العطاء، اعتقادًا منهم بأنّ ذلك الدّين لا مبرّر له وبأنّ اليهود لا يستحقّون هذا المال على الإطلاق.

وما عدا ذلك، كان اليسوعيان يكتفیان بانتظار الأمر بالعودة. ولهذا الغاية، كان الأب رودريكيز، وهو مؤسّس بعض الشيء، يتمنّى الحصول على أمر صريح من الرئيس العامّ نفسه، متردّدًا في الاكتفاء ببعض الأخبار غير المباشرة.

إنّ مجمل تلك الحوادث المؤسفة رسم عند اليسوعيين في أوروبا. وعند غيرهم أيضًا - صورة سيئة عن أقباط مصر. فأخذت فكرة الأقباط الخادعين واليسوعيين المخدوعين ترسخ في الأذهان. وفي ذات يوم، وصل راهبان قبطيان إلى جزيرة صقلية، يدعيان يوسف وميخائيل، وهما من أحد أديرة وادي نظرون. وكانا يحملان عدّة رسائل توجيهية من البابا ومن بعض الأمراء وغيرهم، ومرادها جمع التبرّعات لمساعدة أديرتهم. لكنّ خبر الخدعة التي ذهب الأب رودريكيز ضحيّتها كان يتشر. فاضطرّ الأب ريبادينيرا، رئيس إقليم الجزيرة، إلى مراسلة رؤسائه في رومة للحصول على معلومات. وكانوا على علم بما فعل أبرام وبما عاناه المرفدان، فرأوا من واجبهم أن يحدّثوا اليسوعيين من الأقباط. ولما جاءت نتيجة جمع التبرّعات وخيمة، شكّا بطريرك الأقباط أمره إلى البابا، قائلاً إنّ اليسوعيين وصفاه في أوروبا بشكل غير ملائم!

ومن جهة أخرى - ولكن لا داعي هنا إلى التوسّع في الأمر، مع أنّه على جانب كبير من الأهميّة - فلقد أدى ذلك الاحتكاك بشفاقة غير مألوفة إلى تحوّل تدريجيّ في طرق التفكير السائدة في أوروبا الوسطى في ما يتعلّق بأمر القارة القديمة.

## خاتمة البعثة البابوية

غادر الأب إيلانو الإسكندرية في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٦٢، ففرقت السفينة التي كان على ظهرها أمام شواطئ قبرس. ولقد وصف هذه المغامرة في رواية لا تقل تشويقاً عن رواية أسره. وفي قبرس، كتب بعض الرسائل وبيّن فيها ما قام به من نشاط رسوليّ في هذه الجزيرة. وفي أسبوع الآلام سنة ١٥٦٣، عاد الأب إيلانو إلى أوروبا فوصل إلى البندقية في مطلع حزيران (يونيو)، في حين أنّ الأب رودريكز والأخ برفانو سبقاه إليها ببضعة أسابيع.

وكانت الخيبة الأخيرة شديدة بقدر ما كان الأمل الانتاحي كبيراً.

## البعثة البابوية الثانية (١٥٨٢ - ١٥٨٥)

هذه البعثة لدى الأقباط لم تكن متوقّعة في الأصل. فبينما كانت خُطى الأب إيلانو تذرّع قرى جبل لبنان، كان تنصل فرنسا في القاهرة، بولس مارياني البندقيّ، يحاول أن يعيده إلى مصر. ففي نظره، كان الناس مستعدين لقبول محاولة اتحاد جديدة. لكن الأب إيلانو أعرب عن تحفظه. وعدّ من واجبه المطلق أن يختم قبل كلّ شيء بعثته لدى الموارنة. أمّا في رومة، فقد قوبلت أفكار القنصل بشيء من الترحيب.

### هدف الرحلة

في صيف ١٥٨٢، كانت البعثة في لبنان على وشك الاختتام. ففي ٧ حزيران (يونيو)، كان الأب يوحنا بريسو والأخ ماريو، اللذان اعوانا الأب إيلانو، قد غادرا جبل لبنان، وأبحرا إلى قبرس، لكي يتظرا في هذه الجزيرة سفينة إلى إيطاليا. أمّا الأب إيلانو، فكان قد قصد موارنة حلب. وفي هذه المدينة، وصله في ١٥ آب (أغسطس) رسالة من الأب أكوافيتا، بعث بها قبل شهرين، وطلب فيها إليه أن يذهب دون إبطاء إلى مصر، برفقة الأخ ماريو. فاضطرّ هذا الأخ أن يرجع أدراجه ويعود من قبرس إلى طرابلس. وكانت

الحقائب على ظهر السفينة نُقلت إلى مركب آخر أبحر في ٢٢ أيلول (سبتمبر) إلى مصر. وبعد رحلة دامت أحد عشر يوماً، وصل السوعيان دون عائق إلى القاهرة، عاصمة البلاد، وأقاما عند الفنصل. وبعد ثلاثة أيام، أي في ٦ تشرين الأول (أكتوبر)، قام الأب إيانو بزيارته الأولى ليوحنا الرابع عشر (١٥٧١ - ١٥٨٤)، بطريرك الأقباط.

كان لهذه الزيارة الأولى طابع الاستطلاع، أُريد بها الاستكشاف عن نيّة البطريرك والحكم، بعد الإخفاق المرير الذي عرفناه قبل عشرين سنة، هل في اتصال جديد بين كنيسة رومة ومصر ما يؤمل خيراً. بدأ الأب إيانو مرتاباً في أوّل الأمر، ثمّ بدّل رأيه إلى حدّ ما. ولقد عرض وجهة نظره في بعض الرسائل التي بعث بها إلى السلطات الكنسية في رومة. وإلى جانب ذلك، رأى من واجبه، للقيام بمشروعه أحسن قيام، أن يلتبس تفويضاً رسمياً بوجود لاهوتيّ يكون ابن مبعته.

#### في انتظار التوجيات الرومانية

وبدأت بعد ذلك فترة انتظار بدت لا نهاية لها. تسلّمت رومة رسائل للأب إيانو، لكن رسائل مراسليه تأخرت كثيراً في الوصول إليه. وفي أثناء ذلك، نجح الأب في استمالة بعض الأشخاص إلى العنيدة الكاثوليكية. ومن جهة أخرى، أخذ يدقّ النظر في كتب الأقباط ويدوّن ما وجدته. وألّف من القضايا الكاثوليكية التي اكتشفها في هذه الكتب مجموعة مختارات مفيدة جداً. فلقد أدرك الأب إيانو، من اختباره في البعثة البابوية السابقة ١٥٦١ - ١٥٦٣، أنّ معرفة الأقباط والاطلاع على كتبهم وطقوسهم والرجوع إلى آباؤهم في الإيمان كانت على جانب كبير من الأهمية، فإنّ سلطة الآباء في الشرق هي فوق الاستدلالات العقلية. فكان من المهمّ أن يُكتشف بماذا يؤمن الناس حقاً في صميم قلوبهم، وإن بدت أقواهم في بعض الأحوال غير صحيحة من الناحية الاصطلاحية. أما ماريو، رفيق الأب إيانو، فكان متقلّب المزاج. فأراد رئيسه أن يُلهمه، فأرسله إلى زيارة دير القديسة كاترينا في سيناء. وفي الواقع، لم يتكيف الأخ ماريو للأوضاع الجديدة إلاّ بمشقة، وهذا شأن الأخ برفاقو في البعثة البابوية الأولى إلى مصر. فلم يجد الراحة، لا عند الموارنة ولا بين الأقباط. وقد التمس

الأب إليانو أكثر من مرة من الرئيس العام أن يأذن إليه بإعادته إلى إيطاليا.

تحسّن وضع الأب إليانو الاجتماعي إلى حد بعيد بالنسبة إلى البعثة السابقة. في شتاء ١٥٦٢، اضطرّ إلى الابتعاد عن عنف أبناء دينه السابقين، أما الآن، فإنّ اليهود في القاهرة كانوا يتخافونه وكأنّه موفد من قبّل بايا قدير. فلم يلق آية مشكلة في إقامة العلاقات مع محيطه الماضي وفي زيارة شقيقه.

لبت رومة، بدون علم الأب إليانو، ما طلبه. فقد حرّر قلم ديوان البابا بعض المراسيم. وكُلف الكردينال دي سافيرينا (١٥٣٢-١٦٠٢) بتبّع ذلك المشروع الرسوليّ عن كتب، فوضع سلسلة طويلة من التعليقات. وأراد الأب أكوافيفا (١٥٤٣-١٦١٥) أن يساعد الأب إليانو على الصعيد العقائديّ، فاختار لاهوتياً من نابولي، كان صغير السنّ ولكنّه لامع، وهو الأب فرنيس ساسو (١٥٥٢-١٦٢٣)، وأمر الأخ فرنيس بيونو (نحو ١٥٥٠-١٥٩٩) بمرافقته، لكي يكون حضوره في القاهرة سنداً للأخ ماريو الذي انحطت معنوياته. وفي ١١ آذار (مارس) ١٥٨٣، غادر المسافران رومة إلى البندقية، واشترى فيها بعض الأشياء. وفي ٢٥ حزيران (يونيو)، أبحرت سفيتيما، فاجتازت كورفو والقسطنطينية، ووصل اليسوعيان إلى القاهرة سالمين في ١٢ آب (أغسطس) ١٥٨٣، في أحرّ أيام الصيف.

### المصاعب الأولى

ما لبثت البعثة البابوية أن شرعت في العمل حتّى اضطّرت إلى التخفيف من اندفاعها. وُضع بطريك الأقباط أمام الأمر الواقع بحضور الموفدين المفوضين، فحاول الإفلات من إلحاحها على الدعوة إلى عقد سينودس. وزعم يوحنا الرابع عشر من راجه أن يتظر وصول رسالة من البابا قبل الدخول في النقاش حول المسائل العقائدية. وتعامّ عن دليل اليسوعيين بقولها: ونحن جواب حيّ للبابا. فأدّى ذلك إلى أن الأب-ساسو فقد ثقته بالمهمة التي قبلها بطيبة خاطر. ولاحق في الأفتى فترة ركود، فانتزع من الأب إليانو إذناً في زيارة الأراضي المقدّسة برفقة الأخ بيونو. لكن الرحلة باءت بالفشل لعدم وجود سفينة مبحرة إلى فلسطين. كان اليسوعيان قد انطلقا في ١٠ أيلول (سبتمبر) فعادا في الـ ٢٥ منه.

وفي انتظار الخاتمة، وجب على الموفذين أن يتحلّيا بالصبر. فواصل الأب إليانو أبحاثه، وأخذ الأب ساسو يؤلّف مقالاً يردّ فيه على الأقباط، ويُعنى الأب إليانو بترجمته إلى العربيّة. فإن عُقد سينودس، يكون المقودان قد استعدّوا له على قدر الإمكان. لكن الأمل كان ضئيلاً.

وقام الأب إليانو، إلى جانب أبحاثه العلميّة، ببعض الخدمات الرسوليّة. كانت أحوال العيد نهزّ مشاعره. فاجتهد بثبات في التخفيف من مصائبهم وفي اقتداء بعضهم، حتّى إنّ الرئيس العام اضطرّ إلى الحدّ من شدّة غيرته. وكان الرحّالة البولوني، خريستوف زُدزيفيل، يزور مصر في شهريّ آب (أغسطس) وأيلول (سبتمبر) ١٥٨٣، فترك للأب إليانو صدقة كبيرة للتخفيف من أحوالهم اليائسة. وهناك رحّالة آخر، برومبير أليان الطبيب، كان هو أيضاً من حلقة الأصدقاء.

ما هو السبب الذي حمل البطريرك الجليل على أن يُظهر كثيراً من التحفُّظ؟ قد نتبه في تكهّنات لا حدّ لها، يبدو من الراجح مع ذلك أنّ بعض القويّ المتأومة كانت تسمى وراء الكواليس. فإنّ نعمان، بطريرك البعاقبة، الذي لجأ إلى رومة والذي كان يعيش في بلاط البابا، قام بدور ملتبس في هذه القضية. فلقد بدا أنّ هذه الشخصية أرادت أن تعارض كلّ سعي للتقارب بين كنيسة رومة ومصر. كان هذا الخبر يقيم في رومة فكان سهلاً عليه أن يطلع على الأمور. وفي المراسلة التي وصلت إلينا لا يظهر بمظهرٍ لصالحه.

### سينودس مُنف

وأخيراً، وبعد الكثير من التردّد والضغط، ولا سيّما من قبِل التنصل، قبل البطريرك أن يوجّه الدعوة إلى انعقاد سينودس في عيد الميلاد. وفي دار بولس مارياني، تمّ انعقاد «مجمع مُنف» للمرة الأولى. فشرح الموفدون للأقباط ما تتطرّه كنيسة رومة منهم: قبول مجمع خلفيدونية القائل بوجود طبيعتين في يسوع المسيح، ورفض مذهب ديوسقورس. أثار هذا المرض دهش الأقباط، فقد خُجل إليهم سماع عقيدة ثوريّة! فطلبوا مهلة للتفكير والاستشارة. وفي اجتماع آخر عُقد في مطلع كانون الثاني (يناير) ١٥٨٤، رفض البطريرك

عروض رومة رفضاً باتاً. وكان دليلهم أن هذه العقيدة «الجديدة» لا تتفق على الإطلاق مع تعليم آباؤهم في الإيمان. فبدأ للمرة الثانية أن البعثة كُتب لها الإخفاق. لكن اليسوعيين ومارياني وجدوا في وصول ديوسقورس، وهو أسقف ذو نفوذ قلّ نظيره، تأييداً مكثهم أن يتزعوا من الأقباط قبول عقد جلسة ثالثة، واستقبل القنصل في مقرّه، في ١ شباط (فبراير) ١٥٨٤، البطريك ونائبه والأسقف ديوسقورس وثلاثة آخرين، ثلاثة من أعيان الأمة ونحو عشرين شخصاً من مستوى ثقافي رفيع، يميل بعضهم إلى العقائد الكاثوليكية. لا تنس هنا أن مارياني كان يتمتع بحظوة لدى الأقباط، فقد أدى لهم كثيراً من الخدمات، فكان نفوذه يمتد إلى حدّ بعيد لجميع مشايخ اليسوعيين. أما تأليف هذه الجمعية، فيجوز التساؤل إلى أيّ حدّ كان يمثل في الواقع أمة الأقباط. وأخيراً، وفي ختام نقاش طويل، قدّم السينودس نصّاً رأى الموفدان أنه مقبول. لا شك أن الأقباط لم يعترفوا بوجود طبيعتين في يسوع المسيح «قولاً» بل قبلوه «حقيقة».

لكن ارتياح اليسوعيين أمام نتيجة غير متظرة لم تدم طويلاً. فمن الطرفين، بقي قبول الاتفاق الحاصل بدون أثر. ذلك بأن البطريك، نزولاً عند إلحاح نائبه، رفض التوقيع على الوثيقة. ولما قرب زمن الصوم، انصرف إلى البرية حيث استتت إقامته، على أثر اضطهاد لم يطل والحمد لله - وأراد يعد ذلك إكمال الزيارة الرعوية في الدلتا. وفي رومة أيضاً نرى أن النص الذي وضع بعد الجهد والكث لم ينل حظوة لا في عيني الكردينال دي صنتا سيفرينا، ولا في عيني الرئيس العام، ولا في أعين من استشير من اللاهوتيين. فإن جميعهم طالبوا باعتراف صريح بالمجمع الخلقيدوني.

### مواصلة البعثة

فلم يكن هناك حاجة إلى مواصلة البعثة - ورأي اليسوعيون (وإن لم يشارك الأب إيانو إخوانه صراحةً في رأيهم) أن جميع الظروف مجتمعة للاستئذان بالعودة إلى إيطاليا. وفي تلك الأثناء، قام الأب ساسو بزيارته إلى الأراضي المقدسة. فبدأ رحلته، بصحبة الأخ برينو، في ٢٢ آذار (مارس). أما تاريخ عودته فليس هو معروفًا. وبقي الأب إيانو وحده مع ماريو، وألح عليه

هذا بالعودة إلى مقرهم . ولكن كان لا بدّ من انتظار نهاية الصيف، لأنّ فصل السفر بحرًا قد فات. وبالرغم من الظواهر المعاكسة، لم يفقد الأب أمله في نجاح البعثة، فلم ينقطع عن أبحاثه في كتب الآباء. وكذلك فإنّ رومة لم تعدل عن مواصلة البعثة، أمام الإخفاق الذي واجهته في مصر. فبعثت برسائل إلى القاهرة تأكيدًا لموقفها.

### حوادث جديدة

ومع ذلك، فقد وقع، في أثناء صيف ١٥٨٤، حادثان خطيرتان زعزعتا إلى حدّ بعيد العمل الذي تمّ حتى ذلك الحين.

الحادثة الأولى كانت وصول خريستوف قُتو، قنصل فرنسا الأصلي، إلى مصر. أراد أن يستعيد منصبه الذي يشغله مارياني. فقام صراع حارٍ بينهما، لمعرفة من سيُشغل ذلك المنصب المُريح، منصب قنصل فرنسا في القاهرة. فذهب اليسوعيان ضحية ذلك التنافس البريء. فلقد دافعا دفاعًا شديدًا عن الذي أحسن إليهم وأبد مفاوذهم. ولا شك أنّ تعلُّقهم المطلق بذلك الصديق قلل من بصيرتهم لقائمه الاحتمالية في ما يختصّ بالتجارة والسياسة.

وفي المدينة الخالدة أيضًا، واصل نعمان، بطريرك اليعاقبة، سعيه لتوسيع الاختلاف العقائدي. وإلى جانب ذلك، نادى بعض الحلقات الرومانية، أمام قلة نجاح بعثة اليسوعيين. بأنّخذ متاربه مختلفة. ففي ٢٨ تموز (يوليو) ١٥٨٤، وصل إلى القاهرة موفدان آخران من قبل البابا، حاملين براءات بابوية، وهما يوحنا المعمدان فيكيّتي، غنمان من فلورنسة، ويوحنا مريم الحبشي، كاهن شرقي. فكانت العلاقات بين اليسوعيين وهذين القادمين الجديدين قليلة الحرارة. ولقد اعترف الأب إيانو بأنه لا يقلّ عن الأباط ارتباكًا، فهم لم يعودوا يعرفون إلى من يلجأون.

### إلقاء اليسوعيين في السجن

وفي ٥ أيلول (سبتمبر) ١٥٨٤، انتقل بطريرك الأقباط، يوحنا الرابع عشر، إلى حياة أفضل، وكان ذلك في نحرية، وهي قرية بالقرب من

العاصمة. وكان قد أوشك على الانتهاء من زيارته الرعوية للدلتا، فبقي الاتفاق العقائدي الذي توصل إليه السينودس بلا توقيع.

وقبل انتخاب بطريرك جديد، قد تمضي عدة أشهر، أو حتى عدة سنوات. ولم يكن هناك أي سبب وجه يُبهر اليسوعيين على البقاء في بلاد النيل، فاستقرّ القرار على مغادرتها، وذهب ماريو إلى الإسكندرية في ١٨ (٩؟) (سبتمبر) ١٥٨٤. وكان الموفدان قد تسلّموا قبل ذلك رسالة من وجهاء الأقباط، فقد شعروا، على أثر وفاة رئيسهم الديني، بحاجة إلى التعبير باسمه - لم تُحفظ هذه الرسالة فلا نعرف مضمونها بالضبط - عن رغبتهم في البقاء على صلة بكنيسة رومة. وبعد ذلك بثلاثة أيام، يوم الجمعة ٢١ أيلول (سبتمبر)، وقعت الكارثة: فحين أوشك اليسوعيان على مغادرة منزلها للإبحار في بولاق، (وكان هناك أيضًا راهبان فرنسيّان)، دُعرا بمشاهدة بعض الجنود يحتلون عُرفها فجأة، ومُحطّمون كلّ شيء بوقاحة ويضربون الرهبان. ثم وضعوا الأختام على الأبواب وذهبوا بالصناديق الثمينة، بما فيها من رسائل وتوجيهات ومراسم وبراءات. وبعد ذلك، ساقهم الجنود، وكأنتهم مجرمون، إلى مكان سجنهم، مرورًا بالمدينة، في وسط المتفرجين من الرعاع. ومن الأمور الغريبة أن رجلاً مقتنًا، يبدو أنه مطلع على أمور المنزل، هو الذي أشرف على العملية كليًا. وفي انتظار إجراء الاستجابات في حضرة الباشا، أُلقي اليسوعيان والراهبان الفرنسيّان في السجن.

فكر اليسوعيان أولًا في الاستنهاد واستعدّوا له. لكنّها، لحسن ظنّها، قد أخطأ في تقديرهما. فإنّ العملية في الواقع كانت ضربة ذئبة من قبل خريستوف قسّو: فقد أراد أن يحطّ، في عيون الناس، من نفوذ مارياني، عدوّه اللدود، فلم يجد أفضل من بسط اليد إلى ضيفيه اليسوعيين، ومن اتّهامها الخطير بتحريض الأقباط على التمرد على سلطات البلاد. من شأن مثل هذا الاتّهام أن يُنظر فيه بما أمكن من الجدّيّة، فإنّ ذكريات هزيمة لبيانت (٧ تشرين الأوّل ١٥٧١) لم تكن قد أمّحت من الأذهان. ولما قام الباشا باستجواب موقّدي البابا، لم يتدّ له أنّها عرضة لتلك التعريضات غير المعقولة، وذلك بالرغم من اطلاعها على رسالة وجهاء الأقباط التي عثر عليها الباشا في الصناديق، والتي قُشرت لأول وهلة تفسيرًا مورطًا.

وانقلبت القضية، كما يجري غالبًا في مثل تلك الإهانات، إلى قبضة مائية. فبذل القناصلة والتجار الأوروبيون جهودهم لجمع الفدية المطلوبة. وفي ١٥ تشرين الأول (أكتوبر)، وبعد ثلاثة أسابيع مُتعبة، خرج السوعيان سالمين من سجنها. وفي هذه الأثناء، مات الأخ ماريو موتًا فجائيًا في الإسكندرية.

#### خاتمة البعثة البابوية

بعد كل ما جرى، تقلصت حتمًا الآمال الأخيرة في نجاح البعثة البابوية. وأخذ الأقباط يتجنبون من خوفهم كل احتكاك بأولئك الغرباء الذين يُنظر إليهم في البلاد نظرة استياء. وأراد الأب إليانو من جهته أن يكشف الحقيقة في الأحداث الفاضحة التي دمرت جهودهم الدائبة. فرضي بعض التجار بأن يشهدوا لما عرفوا، ولا سيما في شأن ذلك الشخص الغامض المقتنع، وبأن يوقعوا في ذيل محضر حُرر بحسب الأصول. وفي تلك الأثناء، عُمد بولس مارياتي والباشا إبراهيم، من دون أن يكون أي ارتباط بين الأمرين، معزولين عن وظيفتهما. فاضطرَّ الأول إلى التخلي عن القنصلية، وغادر الآخر أرض مصر.

فلم يتبقَّ للبعثة البابوية أي مستقبل، مع أنَّ السوعيين كانوا مأسورين صراحةً بالبقاء (علمًا بأنَّ الرسائل كانت تصل إلى أصحابها بعد أشهر، وأنَّ تلك الأوامر الساقطة تعود إلى الصيف). فاستشاروا أصدقاءهم، فأجمعوا كلهم على الحلِّ التالي: يذهب الأب ساسو إلى رومة ويُطلع المسؤولين على الأحوال الصحيحة، في حين أنَّ الأب إليانو يتظفر في الوقت نفسه توجيهات جديدة وانتخاب بطريرك قبطني جديد. وهكذا غادر الأب ساسو القاهرة في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر)، وفي ٣٠ كانون الثاني (يناير) اجتاز أبواب المدينة الخالدة. وبعد ذلك بأيام قليلة، منحه غريغوريوس الثالث عشر مقابلة. ثم استقرَّ الرأي على أن يتبع الأب إليانو انتخاب البطريرك، شرط ألاَّ يتعرض شخصيًا لبعض المخاطر.

وفي ١٠ نيسان (أبريل) ١٥٨٥، توفي البابا غريغوريوس الثالث عشر. ومن جهة أخرى، تأخر انتخاب بطريرك الأقباط، وكان يُحشى أن يقوم الباشا باستئناف الدعوى، فركب الأب إليانو والأخ بيونو، في شهر آيار (مايو)، سفينة ذاهبة إلى إيطاليا. وفي الطريق، تأخر الأخ، في حين أنَّ الأب واصل رحلته إلى

رومة ووصل إليها في تشرين الأول (أكتوبر). وفي يوم الثلاثاء ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر)، منحه البابا الجديد، سيكستس الخامس، مقابلة. وكان البابا قد ورث شواغل أخرى، فلم يَبْدِ من الاهتمام إلا القليل.

بوشرت البعثة البابوية الثانية لدى الأقباط بكثير من التفاؤل، وسارت بكثير من العناء، وانطفأت كالشمعة.

### الخاتمة

في ١٠ أيار (مايو) ١٩٧٣، قام البابا بولس السادس، خليفة بيوس الرابع وغريغوريوس الثالث عشر من جهة، وبطريرك الأقباط شنودا الثالث، خليفة جبرائيل السابع ويوحنا الرابع عشر من جهة أخرى، بالتوقيع على شهادة إيمان مشتركة وصرح بولس السادس في الكلمة التي وجهها إلى البطريرك: «قامت مناقشات حادة حول العبارات العقائدية التي كانت سبب غموض في الاتفاق الجوهري على الحقيقة التي حاولت الكلمات أن تعبر عنها». وهذا يعني الاعتراف بأن سرّ التجسد، رهان المجمع الخلقيدوني، «هو سرّ لا يوصف ولا يعبر عنه ويفوق جميع الكلمات».

أفليس أن الاعتراف بهذه الحقيقة هو اعتراف بما شعر به الأب إليانو وبالتميز الذي وضعه بين «قولاً» و«حقيقة»؟

## من منشورات دار المشرق

### عن الرهبانية اليسوعية وتاريخها

- القوانين التأسيسية، وضعها القديس إغناطيوس دي لويولا، ١٩٩٠
- جمهورية اشتراكية مسيحية: اليسوعيون وهنود البركواي (١٦٠٩-١٧٦٨)، نقلها إلى العربية د. كميل إسكندر حشيم، ١٩٩١
- *Jésuites au Proche-Orient*, par H. Jalabert, S.J., 1987
- *Une histoire du Liban à travers les archives des Jésuites (1816-1845)*, par S. Kuri, S.J., 1985

### بعض مؤلفات الأب لويس شيخو

- النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، طبعة ثانية، ١٩٨٩
- تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والرابع الأول من القرن العشرين، طبعة ثالثة، ١٩٩١
- شعراء النصرانية قبل الإسلام، طبعة رابعة، ١٩٩١
- شعراء النصرانية بعد الإسلام، طبعة رابعة، ١٩٩١